١ - الألغاز في الأدب العربي

للأستاذ محمود عزت عرفة

اللغز ... ومرادفاته

قد يبدو لأول وهلة أن الألغاز فن مستحدث تسرب إلى أدبنا العربي في عصوره المتأخرة ، فلهج به المتخلفون من الأدباء حتى أصبح فناً قائماً بذاته ، وغرضاً في النثر وفي الشعر تنصرف إليه الغاية ، وتُصاغ فيه الرسائل والمقطعات ، كما نرى ذلك في العصر التركي وما تلاه من عهود الانحطاط

على أن النظرة الشاملة تنفي عن أذهاننا هذه الفكرة الخاطئة ، وتكشف لنا عن مدى تسلسل هذا الفن مع العربية منذ أقدم عصورها

والواقع أن الألغاز - وما يجري مجراها - لا تعدو أن تكون ضرباً من التعبير عماده اللقانة والفهم وحسن التأتّي والفطنة من القائل ومن المستمع جميعاً ؛ وتلك نفحات ذهنية كان للعقل العربي منها منذ نشأته أوفر نصيب . واشتقاق « اللغز » في اللغة يشير إلى قدم هذه التسمية أو قدم مدلولها على الأقل ، إن لم يمكن التثبت من إطلاقها على هذا الفن نفسه منذ العهد الجاهلي

يقول قدامة في كتابه نقد النثر : أما اللغز فإنه من ألغز اليربوع ولغّز إذا حفر لنفسه مستقيماً ثم أخذ يمنةً ويسرة ، ليعمى بذلك على طالبه ، وهو قول استُعمل فيه اللفظ المتشابه طلباً للمعاياة والمحاجاة

وأورد ابن الأثير قريباً من هذا ثم أضاف : وقيل - يعني في الألغاز - جمع لَغَز بفتح اللام ، وهو ميلك بالشيء عن وجهه ...

هذا وللغز مرادفات كثيرة يوردها أكثر المصادر من غير تفرقة ولا تحديد ، فيقال له (اللحن) وهو التعريض بالشيء من غير تصريح ، أو الكناية عنه بغيره . ومن ذلك قوله تعالى في صفة المنافقين : (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول) قال الزمخشري : أي في نحوه وأسلوبه ، وقيل اللحن أن تلحن بكلامك أي تميله إلى نحو من الأنحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية ...

ويطلق على اللغز أيضاً المعمّى والترجم والأغلوطة ، والأحجية والمحاجاة (لدلالة الحجا عليه) ، والأدعية مثل الأحجية ... وأنشد الجوهري في الصحاح :

أُداعيكَ ما مُستصحَباتٌ مع السُّرى
حِسانٌ وما آثارهُن حسان !

وقال يعني السيوف . ويقال للغز أيضاً (الألقية) وهي ما يلقى بقصد الاختبار وطلب التعجيز ، و (المعاياة) ولعلها من تطلب الإعياء أو إثبات العي . وكل هذه ألفاظ تتقارب معانيها حتى لتكاد تؤدي إلى مدلول واحد . ولقد حاول ابن الأثير في « المثل السائر » أن يفرد من بين ذلك ما سماه (المغالطات المعنوية) فيجعله نوعاً ، ثم يضم الأحاجي والأغاليط والألغاز والمعميات فيجعلها نوعاً آخر

تقسيم ابن الأثير

وهو يقول عن النوع الأول الذي سماه المغالطات المعنوية : حقيقته أن يُذكر معنى من المعاني له « مثل » في شيء آخر أو « نقيض » ، والنقيض أحسن موقعاً وألطف مأخذاً

ويقدم كنموذج لما له « مثل » قول المتنبي في وصف رمح :

يمادر كلَّ ملتفت إليه ولَبَّته لثعلبه وجارُ

فمعنى الثعلب المقصود هنا سنان الرمح . ولكن إمكان انطلاق هذا اللفظ على الحيوان المعروف أيضاً ، أتاح للشاعر أن يثبت لفظ (الوجار) على سبيل الجمع بين المثلين : الثعلب الحيوان ووجاره

أما ما يأتي على سبيل « النقيض » فذلك كقول الشاعر - محاجياً في الدواب - :

وما أشياء تشريها بمال فإن نفقت فأكسد ما تكون!

إذ يقال نفقت السلعة أي راجت ، ونفقت الدابة إذا ماتت

قال ابن الأثير : وموضع المناقضة ههنا في قوله إنها إذا نفقت كسدت ، فجاء بالشيء ونقيضه ، وجعل هذا سبباً لهذا ...

ويخطّئ ابن الأثير من يُدخل هذا الضرب من المغالطات المعنوية في باب الألغاز ؛ ويعيب ذلك على أبي الفرج في أغانيه والحريري في مقاماته

واللغز عنده – بعد ذلك – هو كل معنى يستخرج بالحدس والحزْر ، لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازاً ؛ ولا يفهم من عرضه . ويمثل لذلك بقول الشاعر[1] ملغزاً في الفرس :

وصاحب لا أمل الدهر صحبته ... يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فذ وقعت ... عيني عليه افترقنا فرقة الأبد !

على أنه يعود فيتمثل بقول الآخر ملغزاً في (خلخال) :

ومضروب بلا جـــرم ... مليح اللون معشوق
له قـــدُّ الهلال على ... مليح القـــد ممشوق
وأكثر ما يُرى أبداً ... على الأمشاط في سوق !

وواضح أن من السهل إدراج هـذا المثل في باب المغالطات المعنوية ؛ إذ الأمشاط والسوق المقصودة هنـا هي تلك المواضع المعروفة من الجسم ، ولكن الشاعر غالط في معنى الكلمتين جميعاً ، وأتاح له هذه المغالطة المعنوية (المزدوجة) ما يكون من اقتران سوق البيع والشراء في الأذهان عادة بأمشاط الشعر التي تباع فيها ، حتى لكان مما أضافه ابن الأثير إلى ذلك قوله : بلغني أن بعض الناس سمع هذه الأبيات فقال : لقد دخلت السوق فما رأيت على الأمشاط شيئاً !

هذا وإن المغالطة المعنوية في البيت الأخير — بذكر الشيء ومثله — لشبيهة بما سلكه المتنبي من المغالطة في معنى الثعلب بذكر «مثل» له وهو الوجار . فنرى من ذلك أن اللغز ومرادفاته — ومن بينها المغالطة المعنوية — تدور جميعها حول مدلول واحد أو يكاد يكون واحداً . فمحاولة التفرقة بين معاني هـذه المترادفات توشك أن تكون تعسفاً لا محصل منه ومجهوداً لا طائل تحته

لماذا يلغزون ؟

استعمل الفصحاء من قديم هذا الضرب من التعبير الدقيق ناظرين إلى فوائد فيه ، منها رياضة الفكر على تصحيح المعاني واستنباط دقائقها من بطون الألفاظ . ومنها إظهار البراعة في التلبيس والتمويه بتجلية الحق في معرض الباطل وإلباس الممكن ثوب المستحيل . ومنها توليد المعاني الغريبة والتزيد فيها ، وابتكار ما يستثير العجب منها في غموضه ، والإعجاب بعد تجليته وإيضاحه . ومنها صون ما يراد صونه من معاني الكلام وحجبه إلا دون من يُرغب في بذله إليه ؛ وذلك ما يقال له « الرمز » وأصله في اللغة الصوت الخفي الذي لا يكاد يفهم ، ثم أطلق على ما خفي من الكلام وأريد طيه عن سائر الناس مع الإفضاء به إلى بعضهم . قال قدامة في نقد النثر : « وقد أتى في كتب المتقدمين من الحكماء والمتفلسفين من الرموز شيء كثير ، وكان أشدهم استعمالاً للرمز أفلاطون

يضاف إلى هذه الأغراض الدنيوية جميعاً غرض آخر متعلق بالدين ، هو ما يكون من تجنب الكذب الصراح أو اليمين الكاذبة ، مع سلوك سبيل المداراة والإرضاء بالظاهر من القول . وقد جاء في الحديث : رأس العقل بعد الإيمان بالله عز وجل مداراة الناس . وإنما يكون ذلك عند التقية ومخاطبة من تخشى بادرته من حاكم غاشم أو سفيه متهجم . ويسمى ابن دريد ذلك (الملاحن) وقد ألف فيه كتاباً فيما سنشير إليه . ويسميه قدامة « المعارضة » وتعريفها عنده أنها المقابلة بين الكلامين المتساويين في اللفظ . قال : وذلك مثل قول بعضهم وقد سأله بعض أهل الدولة العباسية عن قوله في لبس السواد فقال : وهل النور إلا في السواد ! وأراد نور العين في سوادها ، فأرضى السائل ولم يكذب

وضرب قدامة مثلاً من المعارضة في القرآن قول مؤذن يوسف : «أيتها العير إنكم لسارقون» وهم لم يسرقوا الصواع ، وإنما عنى سرقتهم إياه من أبيه

قلت : وشبيه بهذا قوله تعالى على لسان إبراهيم : « بل فعله كبيرهم هذا » يعني أن الصنم الأكبر كان أشدها إغاظة له لما رأى من زيادة تعظيمهم إياه وأقوها – تبعاً لذلك – حملا على التحطيم « والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه » – ففي الآية أسلوب تعريضي جمع بين تبكيتهم ، والتبرؤ من الكذب بإسناد الفعل ظاهراً إلى الصنم

وليس يعد هذا النوع من المعارضة كذباً بوجه ، إذ كان من مأثور قولهم : « في المعاريض مندوحة عن الكذب » . والصدق في اللفظ غير مراد لذاته ، بل لدلالة فيـه على الحق ، ومعونة منه على بلوغه . وقد أزال الغزالي ما لعله يتبقى من الشبهة

(١) أبو المظفر أسامة بن منقذ . توفي عام ٥٨٤ هـ